أدب الرّحلة في الجزائر: رحلة أُنس الفقير وعزُّ الحقير لابن قنفذ القسنطيني أنموذجا-

The Algerian Travel Literature: The travel of Anas al-Faqir and Izz al-Haqir (in English Delight of the Poor and Might of the Worthless) by Ibn Qunfud al-Qusantini as a Case Study

د/ أحلام عثامنية

مخبر الدراسات اللغوية والأدبية -جامعة 8 ماي 1945 قالمة (الجزائر).

Athamnia.ahlem@univ-guelma.dz

تاريخ الإرسال: 2022/08/31	تاريخ: القبول: 2022/10/19	تاريخ النشر: 2022/12/31

المستخلص:

تعدّ رحلة "أُنس الفقير وعزّ الحقير" من أهمّ الرّحلات الجزائرية خلال القرن الثامن للهجرة، حيث انصب الاهتمام فيها بشيوخ الصوفية، وأصحاب الطرق الكبرى، وتَتَّبُعِهم ونيل البركة والدّعاء منهم. وقد وضعها صاحبها خصيصا للتعريف بالشّيخ أبي مدين شعيب في القرن الخامس للهجرة. أفاض ابن قنفذ القسنطيني في وصف ارتساماته عن الشخصيات المغربية الفذّة، وَأبرز من خلالها النهضة الدّينية والعلمية في بعض المدن المغربية، وبخاصة فاس حاضرة المغرب المَريني، فرصد الرّحالة حياة الصوفية بالمغرب في عصره، حيث كثرت خلال القرن الثامن للهجرة في عهد المرينيين الطوائف الصوفية والزّوايا التي كان يرتادها الطلبةُ والمريدون. يستهدف هذا البحث نفض الغبار عن الأدب الجزائري القديم، وسبر أغواره، وذلك بالوقوف عند رحلة جزائرية قديمة، ودراستها من حيث والأسلوب؛ وقد وقع اختيارنا على هذا النص باعتباره إنتاجا أدبيا لكاتب اشتهر في عصره؛ إذ ألف ما يربو عن ثلاثين كتابا.

كلمات مفتاحية: أدب الرّحلة؛ التّصوف؛ ابن قنفذ القسنطيني؛ البنية؛ الأسلوب.

Abstract:

"Anas al-Faqir wa 'Izz al-Haqir" is one of the most important Algerian travels during the 8th century A.H, in which attention was paid to the Sufi elders, and the leaders of the Sufi schools. The aim of which is to follow them and obtain their blessings and prayers. This travel was produced by its writer in view to introduce Sheikh Abu Madyan Shuʿayb during the 5th century AH.

Ibn Qunfud al-Qusantini elaborated the unique Moroccan personalities on his portrayals, through which he highlighted the religious and scientific renaissance in some Moroccan cities, especially Fez, the Marinid capital of Morocco. The traveler jotted down the life of Sufism in Morocco during his time. In the 8th century A.H, during the reign of the Marinids; Sufi sects and corners, frequented by students and muridin, abounded.

This study aims to uncover the Old Algerian Literature, and fathom its dimensions. This is carried out by tackling and approachingan an antique Algerian travel in terms of structure and style. This text is selected due to the fact that it is a literary production of a famous writer in his time who authored more than thirty books.

Keywords: travel literature, Sufism, Ibn Qunfud al-Qusantini; structure; style

1.مقدّمة:

عرف العرب أدب الرّحلات منذ القديم، وكانت عنايتهم به عظيمة في سائر العصور، وهو لون من النثر يتخذ من الرّحلة موضوعاً ينقل فيه الرّحالة تجاربه وتصوراته للممالك والمسالك التي شهدها، بحيث يخرجها في شكل أدبي نثري متميّز في لغته وأسلوبه، وطريقة بنائه، فتحكمه سمات وملامح مستقلة.

انتقل التأليف في الرّحلات العربية ابتداء من القرن السادس للهجرة من المشارقة إلى المغاربة، فعُرفوا بولعهم بالرّحلة، وألفوا فيها تصانيف كثيرة، وكتبا عديدة، قدّموا من خلالها مهمة سامية للأجيال اللاحقة، إذ أسهمت رحلاتهم في نقل كثير من الصور الجميلة، والمشاهد الحيّة لطبيعة البلاد وجغرافيتها، وعادات السكان وتقاليدهم، فضلا عن علومها وثقافتها وأدبها. فعملوا بذلك على نقل كثير من ثقافات الشعوب وأحوالهم.

يُعدُّ ابن قنفذ القسنطيني (810ه) من أشهر رحالة هذا القرن، حيث حرّر رحلة في التّصوف، وفي الترجمة لأشياخه سمّاها: " أُنْسُ الفقير وعزُّ الحقير ". استغرقت رحلته ثماني عشرة سنة، وهي رحلة ذات طابع زياري عُني فيها صاحبها بزيارة أضرحة الأولياء الصّالحين، والمشايخ الأحياء، وتَتَّبُعَهم في كلّ مكان للأخذ عنهم، والاستفادة منهم. جاب الرّحالة أقطار المغرب إلى أن وصل إلى فاس، واستقر بها بحثا عن أصحاب الشّيخ أبي مدين شعيب؛ وقد كتب ابن قنفذ رحلته بعد عودته من غيبته الطويلة.

يستهدف هذا البحث الكشف عن طبيعة رحلة ابن قنفذ القسنطيني ونوعها، والموضوعات التي تطرّق إليها؟ ومن هنا يمكن أن نصوغ الإشكالية في التساؤل الآتي: كيف بنى ابن قنفذ القسنطيني رحلته؟ وما هي المراحل التي اعتمد عليها في ذلك؟ وبما اتسم أسلوبها؟

2- أدب الرّحلة:

أدب الرّحلة لون من الأدب يصور فيه الرّحالة كلّ ما شاهده في أثناء رحلته في أماكن وبلدان، ومسالك وممالك، وينقل عادات وتقاليد خاصة بمجتمعات وشعوب، وبمعنى آخر هو

فن يُعبر عن مشاعر تختلج في نفس الأديب تجاه كلّ ما يراه. ويعدُّ أدب الرّحلة نوعاً من أنواع التواصل الثقافي، فبوساطته تتعارف الأمم والشعوب وتتقارب، حيث تتعرف كلّ أمة إلى ثقافة الأمم الأخرى.

أ/ الرّحلة في اللغة:

الرّحلة في اللغة الترحيل والارتحال بمعنى الإشْخَاص والإزْعَاج. يقال رَحَلَ الرَجلُ إذا سَار[1] أي أنّ الرّحلة هي السّير والانتقال من مكان إلى مكان. والرُحلة بالضم الوجهُ الذي تريده، والرِحلة بالكسر هي الارتحال[2]، ورحل وارتحل بمعنى انتقل، ورحلة تعنى سفرة[3]، كلّ هذه المفردات تصب في معنى واحد هو الانتقال والضرب في الأرض، والسير في مناكبها.

ب/ الرّحلة في الاصطلاح:

هي فن من الفنون النثرية تتعلق بحياة الأفراد والأمم التي زارها الرّحالة، حيث تتعرض بشيء من التفصيل لجميع نواحي حياتهم ومعيشتهم بأسلوب أدبي شائق يغرى القارئ بمواصلة القراءة من أول سطر إلى آخر سطر من دون ملل أو كلل.

احتوى أدب الرّحلات على مادة وفيرة وغزيرة؛ تاريخية وجغرافية واجتماعية واقتصادية وأدبية ودينية، كما تضمن الحكايات والأساطير :" قد لا ترتقي إلى مستوى الفن القائم بذاته كفن القصة، أو الشعر، أو المسرحية، أو المقالة الأدبية مثلا، ففيه تجتمع أساليب هذه الفنون وموضوعاتها كلها من غير أن تضبطه معاييرها أو أن تخضع لمقاييسها"[4].

هذا التعدد في موضوعات أدب الرّحلة هو أحد أهم ركائزها وخصائصها الفنّية، وهذا ما يزيدها حلاوة، بحيث تجد قارئ الرّحلات لا يَمَلُّ من قراءتها، بل تجده متطلّعاً لمعرفة المزيد من الأخبار والحكايات عن الشعوب والبلدان.

ويؤكد بعض الدارسين انتساب " **أدب الرحلة** " إلى حقل السرد:" باعتبارها كتابة أدبية تتوافر على مكونات سردية وآليات كتابية تسمح للتصنيف أن يأخذ مشروعيته في خانة الأدبي"[5]. يُعدُّ السرد السمة البارزة في أدب الرّحلات، لأنّ الرّحالة بصدد الإخبار عما صادفه من أمور وأحداث في أثناء رحلته لأحد الأماكن، لذا يمكن عد النصّ الرّحلي نصّاً سردياً لأنّ المشهد

القصصي فيه مستمر من بداية الرّحلة إلى نهايتها، أي أنّ الرّحلة تجمع بين عنصر القص (الحكي)، والموضوعات المتعددة المتطرقة لجوانب مختلفة.

وهناك من يُعرف الرّحلة على أنّها:" ذلك اللون من التأليف الذي يجمع بين الدّافع الوجداني العميق والتأمل الدقيق في رصد المشاهدات والظواهر بأناة ودقة، والبحث عن الأسباب والنتائج ببصيرة واعية[6].

الرّحلة تعبير صادق في أغلب الأحيان عمّا شاهده الرّحالة، ولهذا فكاتب الرّحلة يستقي المعلومات، والحقائق من المشاهد الحيّة، والتصوير المباشر، وهذا يتطلب منه بصيرة نافذة وواعية في إدراك الأشياء، وفهمها فهماً دقيقاً وعميقاً، ممّا يجعل قراءتها مفيدة وممتعة وشائقة.

3- أدب الرّحلة في الجزائر:

احتلت الرّحلة الأدبية حيّزا معتبرا في التراث العربي الإسلامي على غير النشاطات الأدبية الأخرى؛ فقد تميّزت الحضارة العربية الإسلامية بهذا النوع من الرّحلات الأدبية التي أضفت على رصيدها الحضاري نوعا جديدا من الخيال الإبداعي الممتع الذي يتمازج فيه الواقعي والسحري في تناغم.

شكلت الجزائر إحدى المحطات البارزة والمهمة في أدب الرّحلات؛ إذ أسهمت بشكل كبير في هذا النوع من الإنجاز الأدبي الرفيع المتميز بالمغامرة والمجازفة والمعروف بأدب الرحلات، وكانت بعض رحلات الجزائريين تلبية لنداء الحج وبعضها نتيجة لطلب العلم، وبذلك أسهموا "مساهمة واضحة في كتابة رحلات ولاسيما خلال القرن 18م (12هـ)"[7].

ومن هنا يمكن القول بأنّ الجزائريين لم يحفلوا كثيرا بالرّحلات خلال العهد السابق للعثمانيين؛ وقد أخبر المقّري في كتابه نفح الطيب بأنّ جدّه محمّد بن محمّد أبا عبد الله المقّري التلمساني قد ألف رحلة مشرقية سمّاها "رحلة المتبتّل "، وهي رحلة علمية دينية قصد منها طلب العلم والقيام بالحج.

وقد زار خلالها حواضر العلم المشهورة كالقاهرة ودمشق ومكّة، وفي النفح أخبار كثيرة عن رحلة محمد المقّري الجد، وعن العلماء والأعلام الملاقين له، مع تراجم لهم وسرد لأهم مؤلفاتهم[8].

وتذكر المصادر أنّ هناك رحلة لابن قنفذ القسنطيني الشهير بابن الخطيب، والتي تُعدّ اختصارا لرحلة العبدري المعروفة بالرّحلة المغربية، وقد أشار أحد الباحثين إلى أنّ رحلة ابن قنفذ تحمل عنوان "المسافة السنية في الرحلة العبدرية"، وقيل "المسافة السنية في اختصار الرحلة العبدرية"[9].

وهي مفقودة إلا أنّنا عثرنا على رحلة أخرى لابن قنفذ موسومة بـ" أنس الفقير وعزّ الحقير " التي يذكر فيها أنّه ارتحل إلى تلمسان وأخذ عن شيوخها التفسير والحديث والنحو والأدب، وأنّه أقام بالمغرب ثمانية عشر عاما (759هـ- 776هـ)، طاف فيها ربوع المغرب ولقي عددا من المتصوفة وزار أضرحة الصالحين.

ويعدّ محمد بن عبد الكريم المغيلي رائدا لفن الرّحلة بإقليم توات، حيث ارتحل إلى الحجّ منطلقا من بلاد التكرور، والتقى في طريقه بجلال الدين السيوطي وأجرى معه مناظرات في المنطق والحديث.

وممّا سلفت الإشارة إليه يتضح لنا أنّ الرّحلات الجزائرية التي برزت في الفترة التي سبقت العثمانيين كانت محدودة جدّا، ولكن على الرّغم من ذلك لا يمكن تجاهلها.

4- رحلة أنس الفقير وعزّ الحقير لابن قنفذ القسنطيني[10]:

نالت رحلة ابن قنفذ شهرة وانتشارًا، وهي ليست على نمط الرّحلات المعهودة؛ إذ لم يذكر فيها مؤلّفها ابتداء رحلته مع التّنصيص على ذكر المراحل، وتواريخ الدّخول والخروج من المدن والقرى، فقد كان هدف الرّحالة زيارة أولياء وقته، والوقوف على أضرحة الصّالحين السّابقين لزمانه، وإنّما جعل إطار عمله الكلام على أشهر أولياء المغرب سيدي أبي مدين الغوث[11] وأصحابه وتلامذته.

وعلى الرّغم من أنّ الكتاب اشتهر بعنوانه هذا إلاّ أنّ ابن قنفذ يضيف إليه عبارة "في رجال التصوّف أبي مدين وأصحابه"، وهو يريد بها شرح موضوع كتابه، وليس إضافة للعنوان.

ويكمن مضمون الكتاب في ما قام به ابن قنفذ من رحلاته، "وما شاهده بنفسه، هو اتّصالاته الشّخصيّة برجالات التصوّف، وذكر أخبارهم ومجاهداتهم، والإشارة إلى ما تمتاز به سيرة كل واحد منهم"[25]، وموضوع الكتاب بشكل عام يكمن في البحث الذي قام به ابن قنفذ في القرن الثّامن للهجرة عن حياة الصّوفية في المغرب، وما يكتنف ذلك من كرامات وخوارق وخرافات.

لما استكمل ابن قنفذ دراسته على يد مشايخ منطقته ارتحل إلى تلمسان عاصمة بني زيان، حاضرة العلم، والثقافة، ومدينة العلماء آنذاك، والتقى بعلمائها، وأخذ عن شيوخها التفسير، والحديث الشريف، والفقه، والأدب، والنحو، وفي هذه المدينة وقف عند زاوية شيخها أبي مدين شُعيب بالعُبَّاد، وتبرّك بضريحه.

وبعد ذلك انتقل إلى المغرب الأقصى، فاستقر بفاس عاصمة بني مرين، وأقام بها مدّة طويلة تقرب ثماني عشرة سنة (759هـ - 777هـ) طاف خلالها بربوع المغرب الأقصى، فدخل آسفى وسلا، ودكالة، ومراكش، وأزمور، وغيرها من النواحي والمدن، فالتقى بعلماء ذلك العهد، وبأقطاب التّصوف أمثال أحمد بن عاشر، والأديب الأندلسي لسان الدين بن الخطيب، وشيوخه، فأخذ عنهم التفسير، والحديث، والفقه، والسيرة، والتراجِم، والأدب.

وما ميّز هذه الفترة اهتمامه بأسرار التّصوف والبحث عن خصائصه، وزيارة أضرحة المشاهير من أعلامه. وفي دكالة تولّى منصب القضاء سنة (769هـ).

قرر ابن قنفذ بعد هذه الرّحلة الطويلة في المغرب الرجوع إلى بلدته قسنطينة، لكنّه لم يلبث إلاّ أياما قليلة، وسافر بعدها إلى تونس، ليأخذ عن علمائها وفقهائها، إلاّ أنّه لم يبق بها طويلا؛ فقد عاد إلى قسنطينة، واستقر بها حتى وفاته (810هـ)، وتولّى بها الإمامة والخطابة في مسجدها الجامع، كما عمل على إلقاء دروسٍ في التفسير والحديث في مسجد المدينة وفي بيته، فانتفع بعلمه كثير من طلاب العلم، ثمّ تولّى بعد ذلك منصب القضاء.

5- تحليل الرّحلة من حيث البنية والأسلوب:

أ/ البنية:

يقوم أدب الرّحلة غالبا على أسس معينة تميّزه عن باقي الفنون النثرية الأخرى، وأهم عنصر ميّز أدب الرّحلات هو البِنْيَة. كل خطاب كيفما كان نوعه له شكل، وطريقة معينة في البناء: " والبناء له صلة وطيدة بزمنية الخطاب. إن خطاب الرحلة يتماهى مع الرحلة وعوالمها، ويسعى إلى مواكبتها من البداية إلى النهاية، فهو يبتدئ بتحديد أسباب الرحلة ودوافعها، وزمن الخروج ومكانه. وكلما انتقل الرحالة في مكان واكب الخطاب هذه الانتقالات والتحولات، وصولا إلى النهاية (نهاية الرحلة) والرجوع على نقطة البداية "[12].

أعطت هذه البِنْيَة للرّحلات شكلاً خاصاً ومغايراً، ولكنّها اختلفت من رحلة إلى أخرى حسب المضمون، والهدف الرئيس الذي قصده الرّحالة من وراء خروجه من وطنه. فتعددت أنواع الرّحلات، وتعددت تبعاً لذلك بِنْيَاتها، ولاشك في أنّ هذه البِنْيَات زادت من رونق الرّحلات، فأضفت عليها طابعاً خاصاً جعلت القرّاء يتهافتون على قراءتها، والاستمتاع بحكاياتها المتنوّعة، وقصصها الطريفة.

إذا سنلقي الضوء على رحلة ابن قنفذ لدراستها، وتتّبُع مراحل سيرها، والطريق الذي نهجه الرّحالة، وسار على خطاه.

١/ المقدّمة : وتشتمل على:

- الحمدلة والصلاة والسلام على الرّسول الكريم.
- الدافع وراء كتابة الرّحلة: " رغب إليّ من يتكرم عليّ من بعض إخواني في الدين في تقييد شيء من كلام الشيخ أبي مدين نفعنا الله به وبأمثاله من المسلمين"[13].
- تاريخ، ومكان كتابة الرّحلة (في شهر رمضان سنة 787هـ بمدينة قسنطينة).
- هدف الرّحلة: الترجمة للشّيخ أبي مدين شعيب.

• تسمية الرّحلة بـ" أنس الفقير وعزُّ الحقير ".

قبل ولوج ابن قنفذ إلى ذكر سفره، قدم له بمقدمة تمهيدية تضع القارئ في صلب الموضوع، وتُعَرِّفه على أمور وجب عليه أن يعرفها حتى لا يلتبس عليه ذلك فيما بعد، فيقع في حيرة من أمره، ويخطر بباله عدّة تساؤلات، ولإزالة ذلك، وتجنباً من الوقوع فيه عقد فصلين عَرَّف فيهما بـ: صفة الوليّ، وكرامات الصحابة والأولياء في الحياة وبعد الممات، والفرق بين مكاشفة المسلم والنصراني، ليختم مقدمة كتابه بوصية فيها بيتين من الشعر قالهما بعض الصالحين.

٢/ السّفر (الرّحلة):

بعد الانتهاء من الحديث عن صفة الأولياء وكراماتهم رجع ابن قنفذ للموضوع الذي كان بصدده، وهو الكلام عن شيخ المشايخ أبي مدين شعيب، والتّعريف به.

تُعدُّ رحلة " أنس الفقير وعزُّ الحقير " من الرّحلات الزيارية، قصد صاحبها زيارة الأولياء الصالحين، والمشايخ الأتقياء الأحياء منهم والأموات، وسيكشف البحث عن مراحل رحلته خطوة خطوة، وسيوضح ذلك في دراسة بِنْيَة السّفر.

بدأ ابن قنفذ حديثه بمولد الشّيخ أبي مدين شعيب وعائلته، وبداية طلبه للعلم، حيث سافر إلى فاس، فأخذ العلم على يد أكابر شيوخ الصوفية مثل أبي يعزى، وابن حرزِهم الذي وقف الرّحالة على قبره أثناء إقامته بالمغرب، فختم حديثه عنه ببيتين من الشعر كثيراً ما رددهما هذا الشّيخ. كانت أول زيارته له عام 759هـ ثمّ ذكر كلام الشّيخ أبي مدين ووصاياه (أربع وأربعون وصية)، ليتحدث عن شيوخه وأصحابه أمثال أبي شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجي، وأشار الرّحالة إلى التقائه بأحد حفدة أبي يعزى، والتّبرك به وذلك سنة 761هـ. فختم ترجمته للشّيخ أبي يعزى بثلاثة أبيات شعرية استوجبها المقام التعبيري، ثمّ تحدث عن الشّيخ أبي الحسن عليّ ابن غالب شيخ أبي مدين، فاستشهد ببيت شعري، وترجم أيضا للشّيخ أبي عبد الله الدقاق، فأورد ثلاثة أبيات شعرية سمعها أحد الصحابة في نومه، وهي رسالة مبعوثة خصيصاً لأبي عبد الله الدقاق. ومن الشّيوخ الذين ترجم لهم، وختم تعريفه لكل واحد

منهم بأبيات شعرية: أبو زكرياء يحيى الزواوي، وأبو عليّ يعزى، وأبو جعفر محمّد الصنهاجي، وأبو عبد الله التاودي، وأبو الحسن عليّ الصنهاجي، وأبو تميم الهزميري، وأبو الصبر أيوب السبتي، ويحيى بن صالح، وأبو محمّد عبد الجليل الأنصاري، وأبو محمّد عبد الحق الإشبيلي، وأبو محمّد بن ينصارن الماجري، وحسن بن محمّد الغافقي، وأبو عبد الله محمّد الأنصاري، وأبو عليّ عمر الصباغ، وأبو عمران موسى الحلاج، وأبو عبد الله محمد بن عليّ. ثمّ ذكر الرّحالة العقبات السبع، وختمها ببيتين من الشعر. ليعود مرة أخرى للتعريف ببعض المشايخ، أمثال: أبي مسعود ابن عريف. وأشار إلى وقوفه على قبر أبي بكر ابن العربي بين فاس القديم وفاس الجديد، وزيارته بآزمور من بلاد المغرب قبر الشّيخ أبي شعيب آزمور المعروف بأيوب السارية.

لينتقل إلى جدّه يوسف بن يعقوب البويوسفي، فترجم له ولتلامذته، ذاكراً بيتاً شعرياً للإمام أبي القاسم عمر بن عليّ السعدي المعروف بابن الفارض، ومطلع قصيدة أبي عبد الله محمّد المسفر المسمّاة بـ" نظم فرائد الجواهر في معجزات سيد الأوائل والأواخر صلى الله عليه وسلّم " ، وثلاث رسائل إخوانية له أيضا بعثها لجدِّه، وذلك عندما ترجم له.

زار في مدينة آسفي سنة 763هـ قبر الشّيخ أبي محمّد صالح. فوقف بها عند بعض أحفاده على كتاب مجموع فيه " المقصد الأسني في شرح أسماء الله الحسنى ".

ثمّ ذكر طوائف الصوفية بالمغرب، وأوليائها الصالحين. وفي سنة 768هـ دخل مدينة تانشناشت في أحواز مراكش، ولقي بها أخياراً. وزار في آغمات قبر أبي عبد الله ابن تيجلات.

لمّا وصل الرّحالة إلى المغرب اجتمع بعلمائها، وأوليائها الصالحين: (كان هذا الاجتماع على ساحل البحر المحيط، جوف إقليم دكالة بين بلد آسفي وبلد تيطنفطر، وذلك في شهر ربيع الأول سنة 769هـ)، فترجم لهؤلاء المشايخ الذين التقاهم، وجلس معهم.

ثمّ ذكر آداب الإخوان، فختمها ببيت شعري، ليعود إلى ذكر أصحاب الشّيخ أبي مدين شعيب، والتعريف بهم، وختم حديثه عن كل واحد منهم بأبيات شعرية تناسبه، وتراعي المقام الصوفي، منهم:

أبو محمّد عبد الله الصنهاجي، وفاطمة الأندلسية، وأبو محمّد عبد الله الصنهاجي الزرهوني، وأبو

عبد الله محمّد حمادو الصنهاجي، وأبو عبد الله محمّد بن إبراهيم، وأبو محمّد عبد الخالق التونسي، وأبو الزهر ربيع الأنصاري.

بعدها أورد سند خِرقة الصوفية، فختمها ببيتين شعريين، ليعود مرة أخرى إلى الحديث عن أصحاب أبي مدين شعيب، منهم: الشّيخ أبي محمّد عبد العزيز بن أبي بكر، فذكر في خاتمة الحديث عنه أربعة أبيات شعرية كتبها عبد العزيز برسم الشّيخ أبي مدين شعيب، وأورد فصولاً من رسالة إخوانية كتبها أبو مدين شعيب لعبد العزيز جواباً عن كتابه.

ثمّ تحدث عن وفاة الشّيخ أبي مدين شعيب، لينهيها بأربعة أبيات شعرية. حيث زار الرّحالة قبره، ووقف على تربته، وعند رحيله من المغرب إلى قسنطينة سنة 776هـ، زاره مرة أخرى، ودعا له عند قبره بأن يُيَسِّر الله له رحلته، وخروجه من تلمسان التي أقام فيها مدّة شهر بسبب المجاعة العظيمة. ثمّ وصف قبر الشّيخ أبي مدين، وتحدث عن أبي الفضل ابن النحوي، ذاكراً ثلاثة أبيات شعرية من قصيدته الجيمية المشهورة بالمنفرجة.

٣/ الخاتمة:

- ختم ابن قنفذ كتابه بنكت تنفع الفقير وتُعِزُّ الحقير.
- الإعلان عن نهاية الكتاب الذي وُضِعَ لذكر فضائل الشّيخ أبي مدين شعيب.
- الحمدلة (الحمد الله).
- الصلاة والسلام على سيّد الأولين والآخرين محمّد صلى الله عليه وسلّم وعلى آله وصحبه والتابعين.
- الحوقلة (لا حول ولا قوة إلاّ بالله العليّ العظيم)

٤/ دراسة البِنْيَة:

لكلّ رحلة بداية ونهاية، ولدراسة بنيتها الفنية، لابُدّ من معرفة كيفية مجيء البداية، وكيفية وصول الرّحالة فيها إلى النهاية.

ولتبيّن ذلك لابُدّ من البدء بالمقدمة، فالمقدمات عنصر من عناصر الأساسية المكوّنة لهيكل الرّحلة، وغالبا ما تأتي كإضاءات من حيث ظروف المشروع وهدفه، والمنهج المتّبع، وذكر المميزات الخاصة[14]. استهل ابن قنفذ رحلته بالحمدلة والصلاة والسلام على النّبي صلى الله عليه وسلّم، والدافع وراء كتابته للرّحلة؛ فقد رغب إليه بعض أصحابه تقييد شيء من كلام الشّيخ أبي مدين شعيب وأمثاله من المشايخ، فما كان من ابن قنفذ إلاّ أن نفذ رغبتهم التي كانت فيها فائدة جليلة لطلاب العلم، والرّاغبين في سلوك طريق التّصوف، فجاء هذا الكتاب يُعرِّف بالتّصوف، وطرقه وأولياء الله الأتقياء، وأحوالهم، وصفاتهم، وزهدهم في الدّنيا، وحثّهم للآخرة، والكرامات والخوارق التي أيّدهم الله بها لتكون عونا لهم على نشر تعاليم الدّين الإسلامي، واستقطاب أكبر عدد ممكن من النّاس.

دُوِّنت هذه الرّحلة في مدينة قسنطينة في شهر رمضان المعظّم سنة 787هـ وُضِعت خصّيصاً للتّرجمة بشيخ المشايخ، وقدوة السالكين أبي مدين شعيب، وبأشياخه وتلامذته الأخيار. سُميت هذه الرّحلة بـ" أنس الفقير وعزُّ الحقير ".

بعد عرض مضمون الرّحلة والموضوعات التي تناولها الرّحالة فيها، انتقل إلى الحديث عن خطوات سيره وترحاله، مع العلم أنّه لم يذكر، كغيره، من الرّحالين انطلاق رحلته، وتواريخ دخوله وخروجه من المدن التي مرّ بها في طريقه. وهذا راجع إلى تركيزه على الناحية الزّيارية ذات الطابع الصّوفي أكثر من تركيزه على النواحي الأخرى، فجاء اهتمامه منصباً على الناحية الدّينية الرّوحية بزيارة الأولياء الأحياء منهم والأموات، والوقوف على أضرحة الصالحين إلى درجة أنّه خصّص رحلته للتعريف بأبي مدين شعيب وأصحابه وتلامذته، ولهذا السبب انساح في أرجاء المغرب باحثاً عن رجالات التّصوف، وملاقاتهم، والاستفادة منهم؛ وقد أسفرت قراءة رحلته عن مراحل سفره الآتي ذكرها:

سافر ابن قنفذ من مدينة قسنطينة إلى فاس عاصمة بني مرين لينهل من علم شيوخها، ويستزيد من العلم الذي خرج من أجله، وخلال إقامته واستقراره فيها تولدت لديه فكرة البحث عن أقطاب التّصوف، ورجالاته والتّعمق في أسراره، وهذا لا يتأتى إلاّ بالرّحلة والتقصّي والبحث.

من هنا كانت انطلاقة ابن قنفذ بين ربوع المغرب الأقصى، متنقلاً بين القرى والمدن، راصداً من لقيّهم من أهل الفضل والصلاح، ومن وقف على تربتهم من الأولياء الصالحين.

وممّن لقيّهم الرّحالة في هذه الرّحلة من المشايخ الأحياء أحد حفدة الشّيخ أبي يعزى، وكان ذلك سنة 761هـ حيث أبان ابن قنفذ أنّ هدفه الوقوف على قبر الشّيخ أبي يعزى رحمه الله، إلاّ أنّ ذلك لم يتم له؛ فقد بقي بينه وبين تاغية (حيث ضريح الشّيخ) نصف يوم. فكانت هذه البلدة أوّل مدينة ذكرها الرّحالة خلال سفره.

وفي سنة 763هـ ذهب إلى مدينة آسفي، حيث وقف على قبر الشّيخ أبي محمّد صالح، وفيها اطلع على كتاب مجموع فيه " **المقصد الأسني في شرح أسماء الله الحسنى** "، وجده عند بعض أحفاد هذا الشّيخ.

وفي سنة 768هـ دخل تانشناشت في أحواز مراكش، وفيها التقى بمجموعة من عباد الله الأخيار.

أمّا في سنة 769هـ فاجتمع ابن قنفذ بعلماء المغرب وأوليائها الصالحين. كان هذا الاجتماع على ساحل البحر المحيط، جوف إقليم دكالة بين بلد آسفي وبلد تيطنفطر، وذلك في شهر ربيع الأوّل من هذه السنة.

هذا بالنسبة للمدن التي دخلها، وذكر تاريخ دخوله إليها، وهذا لا يعني أنّه لم يزر غيرها، فرحلته تؤكد مروره بمدن أخرى، ولكن بدون تحديد تاريخ دخوله أو خروجه منها.

ومن هذه المدن مدينة سلا التي دخلها مراراً وتكراراً لزيارة الوليّ الشهير أحمد بن عاشر، كما وقف على قبر الشّيخ أبي بكر بن العربي بين فاس القديم، وفاس الجديد.

أمّا مدينة آزمور (من بلاد المغرب) فقد زارها هي الأخرى، ووقف على قبر الشّيخ أبي شعيب آزمور المعروف بأيوب السارية. ودخل أيضا بلد صفرو من أحواز مدينة فاس، وكذلك مدينة سكساوة. بحث في كلّ مدينة من هذه المدن عن أعلام التّصوف، وسعى للقائهم، والتماس البركة منهم.

وفي سنة 776هـ قرر الرّحالة العودة إلى بلده. مرّ في طريقه بِعُبّاد تلمسان، حيث زار ضريح الشّيخ أبي مدين شعيب. أقام في هذه المدينة مدّة شهر، لم يتمكن من الرّحيل منها بسبب المجاعة العظيمة، فلم يجد بُدّاً من التضرع والتوسل إلى المولى عزّ وجلّ، والوقوف على قبر أبي مدين شعيب، والدعاء له عند قبره بأن يُيَسِّرَ الله له رحلته، وخروجه من تلمسان. وبفضل الله، وبركة أوليائه الأتقياء تمكن من الرّحيل عنها إلى قسنطينة.

كانت هذه، إذاً، مراحل سفر الرّحالة، وتنقلاته بين ربوع المغرب باحثا عن أقطاب التّصوف ومقتفيا آثارهم. فبنى رحلته على التّرجمة لشيخ المشايخ أبي مدين شعيب، أشهر رجال التّصوف في المغرب وأصحابه وتلامذته الأخيار، وكلّ من اتصل به من كبار المشايخ.

أمّا نهاية الرّحلة فختمها ابن قنفذ بمجموعة قيّمة من النصائح، تنفع الفقير وتُعِزُّ الحقير فأطال في هذا المقام لعله يفيد من يريد سلوك طريق الزّهد والتّصوف، وبيَّن الخصال والصفات التي يجب أن يتحلّوا بها ليصلوا إلى هذه المرتبة العليا. خصّص لهذه النصائح حيزاً لا بأس به في رحلته فشغلت تقريبا عشر صفحات، ليعلن في الأخير عن نهاية الكتاب الذي وُضع خصّيصا للتعريف بالشّيخ أبي مدين شعيب، وذكر فضائله.

وككل نهاية أي رحلة لابُدّ من الحمدلة لله عزّ وجلّ الذي وفقه بعونه إلى كتابتها، والصلاة والسلام على خير الأنام محمّد صلى الله عليه وسلّم، وعلى أصحابه والتابعين إلى يوم الدّين.

كانت هذه وقفة مع بِنْيَة رحلة "أنس الفقير وعزّ الحقير" التي لم يذكر فيها صاحبها بداية رحلته ولا نهايتها، ولا تواريخ دخوله إلى المدن والقرى، وإنّما تبيّن ذلك من خلال حديثه عن

الأولياء والمشايخ الذين التقاهم أو زارهم، راسمين طريق سيره وسفره، وموضحين معالم رحلته.

كان سبب كتابتها بعض إخوان وأصحاب ابن قنفذ القسنطيني الذين طلبوا منه تقييد بعض كلام الشّيخ أبي مدين شعيب.

فقد كان ميالاً إلى التعمق في أسرار التّصوف، ومن ثمّ تولدت لديه فكرة الانسياح في ربوع المغرب، والبحث عن رجاله وملاقاتهم، والوقوف على أضرحة المشاهير منهم.

وختم رحلته بنصائح ومعلومات مفيدة تنفع الفقير وتعزّ الحقير، وليس معنى هذا عدم ذكره لنهايتها، بل أشار إلى ذلك حين قرر العودة إلى بلده (قسنطينة) سنة 776هـ أمّا عبارات الحمدلة والشكر والصلاة على النبيّ فلم تَخْلُ منها كلتا الرّحلتين.

ب- أسلوب الرّحلة:

قبل الدخول في صلب الموضوع يجب أوّلا التعريف بكلمة الأسلوب، يقال للسَّطر من النخيل أُسْلوبٌ. وكُلُّ طريقٍ ممتدٍّ، فهو أسلوبٌ، والأُسْلُوبُ الطريق، والوجهُ، والمَذْهَبُ؛ يقال: أنتم في أُسْلُوبِ سُوءٍ، ويُجمَعُ أَسَاليبَ. والأُسْلُوبُ: الطريقُ تأخذ فيه.

والأُسْلوبُ، بالضم: الفَنُّ؛ يقال: أَخَذ فلانٌ في أساليبَ من القول أَي أَفانينَ منه[15].

فالأسلوب هو طريقة الإنسان في التعبير، ولهذا قيل: " الأسلوب هو الرجل "[16]، أي أنّ الأسلوب هو مرآة شخص صاحبه، إن لم نقل هو الشخص نفسه، ولكلّ إنسان طريقته في التعبير، ومن هنا تتعدد الأساليب تبعاً لذلك.

انطلاقا ممّا تقدم سيُلقى الضوء على أسلوب ابن قنفذ من خلال رحلته، واستجلاء الطابع المميّز الغالب على تعبيره، وأهم السمات البارزة في لغته.

تصنف رحلة " أنس الفقير وعزُّ الحقير " ضمن الرّحلات الزيارية ذات الطابع الصّوفي. اعتمد فيها صاحبها على ذاكرته في التحرير، فكلّ ما ذكره من أخبار أبي مدين شعيب وأصحابه وشيوخه كان نتيجة ترحاله، وتنقلاته داخل بلاد المغرب وربوعه.

كان ابن قنفذ في رحلته سارداً وكاتباً في الوقت نفسه ممّا يؤكد هيمنة الأنا النصية على الخطاب الرّحلي. كتب ابن قنفذ رحلته بعد إلحاح بعض الإخوان عليه، فقيّد شيئاً من كلام الشّيخ أبي مدين، وبعض الشّيوخ الآخرين الذين التقاهم في أثناء رحلاته المختلفة، فجاءت رحلته مفككة التسلسل غير متسقة مفتقرة للترابط والتناسب، وربمّا يعود هذا إلى اختفاء عامل الزمن في الرّحلة بشكل لافت للنظر، فافتتح رحلته بالحديث عن الوليّ وشروط الولاية، وعن الكرامة الصّوفية وارتباطها أو عدم ارتباطها بحصول الولاية، ليلج من خلالها في صلب الموضوع، وهو الحديث عن الشّيخ أبي مدين شعيب والتّعريف به، والترجمة لشيوخه وأصحابه، لينتقل بعدها إلى الحديث عن آداب الصوفية، وسندهم في إلباس خِرقة التّصوف. ثمّ عرّف بجدِّه لأمِّه يوسف بن يعقوب الملاري، وترجم لتلامذته وأصحابه. كما ذكر في رحلته أيضا حضوره للمواسم بالمغرب، ولقائه بأوليائه الصالحين ليعود مرة أخرى للحديث عن الشّيخ أبي مدين وأصحابه.

اتسمت رحلته بالبساطة في الأسلوب، والسهولة في الألفاظ وبخاصة عند سرد أخبار، ووصف كرامات الأعلام المترجم لهم في رحلته، مع توظيف بعض الألفاظ العامية كصحفة للصحن، ومخايد للوسادات، وكاملة ربّما لإناء الطعام؛ وقد علق محمّد الفاسي على هذه اللفظة فقال: " إن معناها إما نوع من الطعام أو إناء...فإن كوامل وهي جمع كاملة تدل على نوع المائدة المسماة ميدة بفاس وهي مقعرة مستديرة تجعل بداخلها الصحون وتغطى بما يسمى المكب أو بمنديل "[17]. ومن الجمل شبه العامية التي وظّفها في رحلته قوله: " سلَّمت لك في الجلوس ولا تنسنا بباطنك وأعطني سرجك نركب بها "[18]، فكلّ رحلته تقريبا على مثل هذا النحو من توظيف للألفاظ والجمل، وبعبارة أدق جاءت لغة رحلته في كثير من جوانبها ضعيفة، وفي جوانب أخرى بسيطة.

اعتمد ابن قنفذ فيها بشكل كبير على الترجمة لرجال التّصوف، فكان شغوفاً بالبحث عن عناصره وأقطابه، ولهذا لم يُعِرْ اهتماماً كبيراً للأسلوب، وإنّما كان شغله الشاغل، وهمُّهُ الكبير التّعريفَ بهؤلاء الرجال الأخيار الذين سلكوا طريق التّصوف، فجاء أسلوبه سردياً

بسيطاً واضحاً جعل هدفه تقديم فكرة عن أقطاب التّصوف، وبخاصة أبي مدين شعيب، وأصحابه، وإخوانه الذين دفعوه إلى تحرير هذه الرّحلة بغية الاستفادة منها، والتعرُّف على مَن لقيّهم في غيبته. فلم تتكلف رحلته السجع وألوان البديع الأخرى إلاّ ما جاء في المقدمة: " الحمد لله الذي جعلنا من أمة محمد خاتم أنبيائه. وصرف قلوبنا إلى محبة أهل طاعته وأوليائه. وحفظ وجودنا بوجودهم في أرضه وسمائه. وجعلهم مراتب بحسب تفاوتهم في منازل أصفيائه. ووعدهم بالمزيد من فضله وإحسانه ونعمائه..."[19]. اعتمد في هذه المقدمة على الصنعة والسجع ليفتتح بها رحلته، وهو ما يسمى ببراعة الاستهلال، الذي يشدُّ انتباه المتلقي، ويقع في نفسه موقعاً حسناً.

تنمّ هذه المقدمة عن مقدرته الأدبية، وتفنّنه في أساليب البديع، فاعتمد فيها اعتماداً واضحاً على السجع، وجاءت عباراته المسجوعة ذات وقع في الأذن؛ فقد ألزم فيها نفسه أمرين أدخلاها في خانة التصنع، أولهما طول الجملة وآخرهما طول السجعة، فقد كررها خمس مرات، وهو ما يجعل الدارس يتيقن بأن الكاتب إنّما قصدها قصداً، وتكلفها بقصد التزيين والتحسين.

إلاّ أنّ ابن قنفذ لم يعتمد هذا الأسلوب في كامل الرّحلة، لأنّ طبيعة الموضوع عبارة عن تراجم فرضت عليه البساطة في الأداء والتعبير، وربّما عاد السبب إلى أنّ هؤلاء المتصوفة رجال بسطاء أتقياء، نبذوا الدُّنيا بزينتها وترفها، لينقطعوا إلى الله سبحانه وتعالى راضين بالزهيد مقتنعين به، ولهذا لم يعتمد الكاتب أسلوب البديع الذي يقتضى، أحيانا، التكلف والصنعة والحشو، لأنّه مظهر من مظاهر التفنّن في الحياة، وهذا ما لا يتماشي مع طبيعة هؤلاء الرّجال وتركيبتهم، فهم أُناس عاديون يحبّون البساطة، لهذا اعتمد ابن قنفذ في رحلته على الأسلوب السردي البسيط.

طَعَّمَ ابن قنفذ رحلته بشيء من الأدب الصوفي فحوت مكاتبات ورسائل إخوانية لها قيمتها الأدبية والصوفية، وهي ما تعرف عند المتصوفة بالمكاتبات السّنية، وهي الرسائل الإخوانية التي كانوا يتبادلونها فيما بينهم، وقد تضمنت موضوعات مختلفة مثل الثناء والنصح

وطلب الدعاء، وفي كثير من الأحيان تخلّلها أبياتٌ شعرية. حفلت رحلة " أنس الفقير وعزُّ الحقير " ببعض الرسائل الإخوانية، ولكنّها لم تكن من صنيع الرّحالة، وإنّما هي مجموعة من الرسائل وقف عليها عند جدّه لأمّه يوسف بن يعقوب بعثها إليه صديقه الشّيخ أبو عبد الله محمّد المسفر، كما وقف على رسالة أخرى من الشّيخ أبي محمّد عبد العزيز بن أبي بكر إلى الشّيخ أبي مدين شعيب.

هذه الرسائل أعطت فكرة عامة عن الموضوعات التي كانت متداولة عند الصوفيين في ذلك العصر، فجاءت رسائلهم حافلة بالألفاظ الدّينية، زاخرة بالعبارات الإسلامية، تدلُّ على الثقافة الفقهية، والتّربية الإسلامية المتأصّلة في أولئك المتصوّفة المنقطعين لعبادة الله عزّ وجلّ، ولهذا لم تخرج رسائلهم عن الثناء، والنصح، وطلب الدعاء، والاستغفار.

جاءت بنية هذه الرسائل مُفتتحة بالبسملة والتصلية على رسول الله وعلى آله وصحبه، ليدخل بعدها إلى الموضوع مباشرة. إلاّ أنّ هناك بعض الرسائل افتتحها أصحابها بأبيات شعريّة، وبعضها الآخر دخل مباشرة في الموضوع بعد الافتتاح.

كانت هذه لمحة وجيزة عن الرسائل الإخوانية الصوفية التي وردت في رحلة ابن قنفذ، وقد أثبتها ليُوضح طريقة الصوفيين والمريدين في تعاملاتهم، وكيفية انتقاء ألفاظهم وأساليبهم المستمدة من روح الثقافة الإسلامية، والمتشبّعة منها.

كما حوت رحلته، أيضا، مادة شعرية ذات غرض صوفي محض، هو الشعر الصوفي، الذي يعبّر عن تفرد التّجربة الإنسانية في رحلة استكشاف الذات والآخر والكون ذلك: « أن الشعر الصوفي كان من جانب آخر تطورا للشعر الديني الإسلامي »[20].

حفظت رحلة " أنس الفقير وعزُّ الحقير " في متنها مادة شعرية متناثرة بين فقرات التراجم، إلاّ أنها لم تكن من نظمه، وإنّما استوجبها السياق التعبيري، فجاءت مراعية للمقام الصوفي.

اعتمد الصوفية في هذا النوع من الشعر على الرمز والإيحاء والإشارة للتعبير عن أفكارهم ومشاعرهم في قالب من الصور البيانية والبديعية. فوظّفوا في أشعارهم الألفاظ

السهلة الواضحة السلسة الصادقة الموحية بالغرض مباشرة، بحيث لا تحتاج طول التّأمل وإعمال الفكر، فالتزموا بالبساطة في الأسلوب عن طريق استخدام الخطاب المباشر. أمّا مضمونها فتمحور حول الوعظ والتّذكير حيناً، والحكمة الدّينية من ناحية أخرى، فضلاً عن الدعاء والاستغفار والتّوسل والاستغاثة، ويبدو أنّ هذا الشعر كان التطور الطبيعي للشعر الديني، غير أنّ للشعر الصّوفي مجموعة من الخصائص تميّزه عن بقية الأغراض الأخرى؛ نذكر بعضها بإيجاز:

1/ اعتماد الشاعر على الرّمز والكناية ليحمل البيت الشعري في طيّاته ما لا حصر له من الدّلالات، وهذا يدل على اتّساع خيال الشّاعر، وثراء معانيه، ورقة صوره.

2/ عناية الشعر الصّوفي بالحديث عن النّفس، وتظهر هذه الخاصيّة بصورة أوضح حين يتحدث الشاعر الصوفي عن محبّته، وما يلاقي فيها من وجد وشوق واحتراق، فعبّروا عن الحبّ الإلهي أعظم تعبير، واتّخذوه مذهباً في الحياة ودعوا إليه.

3/ جاء هذا الشعر عبارة عن حِكَم متفرّقة نتيجة للتأمّل والتّجربة، فجاءت صادقة تتعلّق بالموت وما بعده.

الشعر الصّوفي أداة للتّعبير الصّادق المحلّق في عالم الرّوح، فكان نبعاً يرتوي منه الصّوفية.

ساق ابن قنفذ القسنطيني أبياتاً من الشعر في رحلته لشعراء آخرين على سبيل المَثَل والاعتبار، عَقِبَ ترجمته لكلّ شيخ حسب الحالة التي تقتضي ذلك سالكاً طريق ابن الزّيّات التادلي في منهجية كتابه " التشوف إلى رجال التصوف "، آخذا عنه أكثر الأبيات التي ورد ذكرها في رحلته.

6- نتائج البحث:

وفي ختام بحثنا توصّلنا إلى جملة من النّتائج، هي كالآتي:

- كانت رحلة ابن قنفذ القسنطيني كتاباً في تراجم العلماء والفقهاء المغاربة، وبخاصة المالكية منهم.

- رصد حياة الصوفية وتجمعاتهم بتفصيل ودقة، فترجم للمشاهير منهم بدءا بأبي مدين شعيب في القرن الخامس للهجرة وصولاً إلى القرن الثامن عصره.

- يكمن موضوع الكتاب بشكل عام في البحث الذي قام به ابن قنفذ في القرن الثّامن للهجرة عن حياة الصّوفية في المغرب، وما يكتنف ذلك من كرامات وخوارق وخرافات.

- لم يذكر، كغيره، من الرّحالين انطلاق رحلته، وتواريخ دخوله وخروجه من المدن التي مرّ بها في طريقه، لأنّ القصد من السياحة التي قام بها ابن قنفذ هو زيارة أولياء وقته، والوقوف على أضرحة الصّالحين السّابقين لزمانه.

- جاءت رحلته مفككة التسلسل غير متسقة مفتقرة للترابط والتناسب، ويعود هذا إلى اختفاء عامل الزمن في الرّحلة بشكل لافت للنظر لأنّه كتب رحلته اعتمادا على الذاكرة.

- اتسمت رحلته بالبساطة في الأسلوب، والسهولة في الألفاظ وبخاصة عند سرد أخبار، ووصف كرامات الأعلام المترجم لهم في رحلته.

- حوت رحلته على مادة أدبية كالرسائل الإخوانية تبادلها المتصوفة فيما بينهم، ومادة شعرية ذات غرض صوفي محض، هو الشعر الصوفي.

الهوامش والإحالات:

[1] الأزهري، (د، ت)، تهذيب اللغة، تح: عبد الله دروديش، مادة (ر،ح،ل)، مراجعة: محمد علي النجار، ج5، ص5.

[2] الجوهري إسماعيل بن حمّاد، (1984)، الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، مادة (ر،ح، ل)، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، ج4، ص1707.

[3] دوزي رينهارت، (1980)، تكملة المعاجم العربية، ترجمة: محمد سليم النعيمي، دار الرشيد للنشر، بغداد، ج5، ص109-110 .

[4] حسني محمود حسين، (1983)، أدب الرّحلة عند العرب، دار الأندلس، بيروت، ط2، ص9.

[5] الحليفي شعيب، (2006)، الرحلة في الأدب العربي " التجنيس، آليات الكتابة، خطاب متخيل "، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، ص40.

[6] زردومي إسماعيل، (2005)، فن الرحلة في الأدب المغربي القديم، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحاج الأخضر، باتنة، الجزائر، ص12.

[7] سعد الله أبو القاسم، (1998)، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1،ج2، ص395.

[8] المقّري التلمساني أبو العباس، (1988)، نفح الطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ص223.

[9] ضيف بشير ، (2007)، فهرست معلمة التراث الجزائري بين القديم والحديث، منشورات ثالة، الجزائر، ص319.

[10] هو العلامة المتفنّن الرّحالة القاضي أبو العباس أحمد بن حسن (حسين) بن عليّ بن ميمون ابن قنفذ، الشهير بابن الخطيب، وبابن قنفذ .

ولد سنة 740هـ في مدينة قسنطينة من بلاد الجزائر، نشأ في بيت علم، وفضل، ووجاهة، كان والده حسن بن عليّ عالما جماعا للكتب. توفي وترك ابنه صغيراً لم يتعد العشر سنوات من العمر، فتولّى كفالته جدّه لأمّه يوسف بن يعقوب الملاري (764هـ) الذي كان من مشاهير الصوفية في مدينة قسنطينة.

بدأ دراسته الأولية على يد أبيه وجدّه لأمّه الذي حفظ على يديه القرآن الكريم، كما لقنه علوم العربية من نحو وصرف وأدب وحديث، أخذ أيضاً على بعض الشّيوخ منهم: الحسن بن خلف الله بن باديس القسنطينيّ، ولمّا استكمل أخذه عنهم ارتحل إلى تلمسان عاصمة بني زيان، حاضرة العلم، والثقافة، ومدينة العلماء آنذاك، والتقى بعلمائها، وأخذ عن شيوخها التفسير، والحديث الشريف، والفقه، والأدب، والنحو. وبعد ذلك انتقل إلى المغرب الأقصى، فاستقر بفاس عاصمة بني مرين، وأقام بها مدّة طويلة تقرب ثمان عشرة سنة (759هـ - 777هـ) طاف خلالها بربوع المغرب الأقصى.

ترك هذا العلامة الكبير مجموعة من الكتب القيّمة تزيد على ثلاثين مصنفاً في علوم شتى؛ منها: " شرح الطالب في أسنى المطالب "، و" تيسير المطالب في تعديل الكواكب "، و" شرح منظومة ابن أبي الرجال "، و" بغية الفارض في الحساب والفرائض "، و" سراج الثقات في علم الأوقات "، و" الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية "، و" الوفيات "، و" أنس الحبيب عن عز الطبيب "، و"القنفذية في إبطال الدلالة الفلكية "، و" تحفة الوارد في اختصار الشرف من قبل الوالد "، و" أنس الفقير وعزُّ الحقير " التي هي موضوع البحث؛ وهي رحلة تَقَصَّى فيها تنقلاته بالمغرب الأقصى، ومن لقِيَهم من أهل العلم والصلاح. ينظر ترجمته في : الزركلي خير الدين، (2002)، الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرّجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)، دار العلم للملايين، بيروت، ج1، ص117.

[11] هو شعيب بن الحسين الأندلسي، شيخ المشايخ، وسيّد العارفين، وقدوة السالكين. كان وليّاً من أولياء الله الصالحين. ولد نحو سنة 515هـ، وتوفي عن عمر، كما قيل، ناهز الثمانين، فكانت وفاته سنة 594 هـ في منطقة العُبّاد بأحواز تلمسان، نشأ في قطنيانة من قرى إشبيلية في أسرة غير معروفة، كان والداه فقيرين، جاز البحر إلى المغرب، فأخذ العلم عن الشّيخ أبي الحسن عليّ بن حرزهم، والشّيخ أبي عبد الله الدقاق الذي ألبسه الخِرقة، والشّيخ أبي يعزى، وبعد أن مكث مدّة أعوام بفاس قرر الرّحيل إلى المشرق لأداء فريضة الحجّ، والاستزادة من العلم، وهناك لقيّ الصّوفي الكبير عبد القادر الجيلاني فنشأت بينهما علاقات ودّية، واستفاد منه في علم التّصوف، ولما عاد من المشرق استوطن بجاية، وانصرف إلى تعليم التّصوف.

ينظر ترجمته في: الحفناوي أبو القاسم، (1906)، تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة فونتانة الشرقية، الجزائر، ج2، ص172.

[12] يقطين سعيد، (2006)، السّرد العربي مفاهيم وتجلّيّات لسعيد يقطين، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، ص207.

[13] القسنطيني أبو العباس أحمد الخطيب الشهير بابن قنفذ، (1995)، رحلة أنس الفقير وعزّ الحقير ، شرحه وحققه: محمد الفاسي، أدولف فور، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، ص30.

[14] زردومي إسماعيل، (2005)، فن الرحلة في الأدب المغربي القديم، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحاج الأخضر، باتنة، الجزائر، ص68.

[15] ابن منظور، لسان العرب، 473/1.

[16] عياد محمد شكري، (1992)، مدخل إلى علم الأسلوب، مكتبة الجيزة العامة، ط2، ص14.

[17] القسنطيني أبو العباس أحمد الخطيب الشهير بابن قنفذ، أنس الفقير وعزّ الحقير ، ص: ك.

[18] المصدر نفسه، ص92.

[19] المصدر نفسه، ص30.

[20] خفاجي محمد عبد المنعم، (د، ت)، الأدب في التراث الصوفي، مكتبة غريب، ص167.

قائمة المصادروالمراجع:

- الأزهري، (د، ت)، تهذيب اللغة، تح: عبد الله دروديش، مادة (ر،ح،ل)، مراجعة: محمد علي النجار، ج5. (2) الجوهري إسماعيل بن حمّاد، (1984)، الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، مادة (ر،ح، ل)، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، ج4.
- حسني محمود حسين، (1983)، أدب الرّحلة عند العرب، دار الأندلس، بيروت، ط2.
- الحفناوي أبو القاسم، (1906)، تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة فونتانة الشرقية، الجزائر، ج2.
- الحليفي شعيب، (2006)، الرحلة في الأدب العربي " التجنيس، آليات الكتابة، خطاب متخيل "، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1.
- خفاجي محمد عبد المنعم، (د، ت)، الأدب في التراث الصوفي، مكتبة غريب.
- ابن خلدون عبد الرحمن، (2001)، المقدمة(وهي الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)، ضبط المتن: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت.
- دوزي رينهارت، (1980)، تكملة المعاجم العربية، ترجمة: محمد سليم النعيمي، دار الرشيد للنشر، بغداد، ج5.
- الرّازي محمّد بن أبي بكر بن عبد القادر، (1986)، مختار الصحاح، دائرة المعاجم، مكتبة لبنان، بيروت.

- زردومي إسماعيل، (2005)، فن الرحلة في الأدب المغربي القديم، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحاج الأخضر، باتنة، الجزائر.
- الزركلي خير الدين، (2002)، الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرّجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)، دار العلم للملايين، بيروت، ج1.
- السجلماسي أبو محمد القاسم، (د، ت)، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تح: علال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط.
- سعد الله أبو القاسم، (1998)، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1،ج2.
- ضيف بشير ، (2007)، فهرست معلمة التراث الجزائري بين القديم والحديث، منشورات ثالة، الجزائر.
- عياد محمد شكري، (1992)، مدخل إلى علم الأسلوب، مكتبة الجيزة العامة، ط2.
- ابن فارس أبو الحسين أحمد، (د، ت)، مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت.
- قادري عليمة، (2006)،نظام الرحلة ودلالاتها " السندباد البحري- عيّنة " ، منشورات وزارة الثقافة، دمشق.
- القسنطيني أبو العباس أحمد الخطيب الشهير بابن قنفذ، (1995)، رحلة أنس الفقير وعزّ الحقير ، شرحه وحققه: محمد الفاسي، أدولف فور، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط.
- مراشدة علي،(2006)، بنية القصيدة الجاهلية (دراسة تطبيقية في شعر النابغة الذبياني) ، جدارا للكتاب العالمي، الأردن، ط1.
- مصلوح لسعد،(1992)، الأسلوب دراسة لغوية إحصائية، عالم الكتب، القاهرة، ط3.
- المقّري التلمساني أبو العباس، (1988)، نفح الطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ص223.
- ابن منظور، (د، ت)، لسان العرب، دار صادر، بيروت.
- الموافي عبد الرزاق، (1995)، الرحلة في الأدب العربي (حتى نهاية القرن الرابع)، دار النشر للجامعات المصرية، مكتبة الوفاء، القاهرة، ط1.
- يقطين سعيد، (2006)، السّرد العربي مفاهيم وتجلّيّات لسعيد يقطين، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1.